قالوا عن الكتاب

"«قاع المدينة» هو محاولةٌ صحفيَّة وأدبيَّة لالتقاط صوت الناس الكادحين في أحياء يعرفُها سكَّانها، ولا تعرفُها المدينة. لقد جاءَ هذا الكتاب في زمن تتَّسعُ فيه الفجوة ما بين المجتمعات المسوَّرة والمسيَّجة، وفي وقت معلَّق ما بين ذكريات الماضي وواقع يُحتضَرُ في الحاضر".

سمر دودين
ناشطة في مجال العمل الشبابيِّ والثقافيّ

"ذُهِلتُ وأنا أقرأ صفحاتٍ من مسوَّدة الكتاب؛ فالقصص المذكورة حرَّكتْ ذكريات من طفولتي التي عشتها في جبل الجوفة. كأنَّ المؤلِّفةَ كانت معنا في حارتنا، وتوثِّقُ قصصَ الجبل.

الكتاب واقعيٌّ يستعرضُ قصصًا عشتُها في جبل الجوفة، وأكاد أجزم أنَّني أعرف شخوصَ هذه القصص وأبطالها وضحاياها. لا تزالُ هناك قصصٌ تنتظرُ مَن يَحكيها، وهذا يستدعي إصدارَ أجزاءٍ أخرى من هذا العمل الجميل في المستقبل القريب".

علاء السلال
رياديٌّ ومؤسِّس موقع جملون

"حينما كنتُ أدرسُ الهندسةَ المعماريَّة، كانت فكرة مشروع التخرُّج أن أربطَ عمَّان الشرقيَّة بعمان الغربيَّة. فجاءت لينا بعد ٢٥ عامًا وبكلِّ سلاسةٍ، وأخذَتْ قلبي إلى قاع الحزن داخل جدران عمان الشرقيَّة، وذكَّرتْني أنَّ عمَّان ما زالت تبحثُ عمَّن يلمُّ شملَ شطرَي قلبها".

سلمى النمس
الأمينة العامَّة للَّجنة الوطنيَّة الأردنيَّة لشؤون المرأة

"في عمَّان، قاع المدينة هو أصلها وجذرها. قاع المدينة نبضها وانعكاس حياة أناسها. لقد نمَتْ عمَّان من قاع السَّيل نحو الجبال، إلَّا أنَّ الزمنَ لم يُنصِفْ سكَّانها، وقسَّمهم بين سيِّد و«عتَّال».

يعكسُ هذا الكتاب الظُّلمَ الاجتماعيَّ الذي خلَّفه التَّهميش، وهو يحملُ قصصَ الجبل الثائر وأصواتَ جيلٍ أخرجَ السياسةَ إلى الشارع يطالبُ أبناؤه بحقوقهم التي يعرفونها تمامًا: خبز، حرِّيَّة، عدالة اجتماعيَّة".

عروب صبح
إعلاميَّة وناشطة حقوقيَّة

"«قاع المدينة» هو كتابٌ حقيقيٌّ، تقدِّم فيه مؤلِّفته أغنيَّةً شعبيَّةً مدهشة. فيها تلتقط أنفاسَ الناس «الغلابى»، وترسم أحلامهم في مدينة مُزِّقت أوصالُها ما بين «غربيَّة» و«شرقيَّة»، دون أن تتمكَّن عصافير قاع المدينة، من تنفُّس الهواء الرحيم".

غازي الذيبة
شاعرٌ أردنيّ

"كتاب «قاع المدينة» هو في جوهره قصَّة عن حقيقة عالميَّة واحدة: السعي وراء حياة كريمة. لقد خاضَتْ مؤلِّفة الكتاب في حياة عددٍ من الأشخاص، أردنيُّون في خبراتهم، وفي لكنتهم، وفي قلوبهم، لكنَّهم أغرابٌ في عيون الدولة، فهي تصف الظُّلم الذي يقعُ على شرائحَ عدَّة من المجتمع الأردنيِّ، مثل القانون الذي يسلب الأردنيَّات حقَّ تمرير الجنسيَّة إلى أبنائهنَّ".

هبة زيادين
باحثة في "منظَّمة هيومن رايتس ووتش"

"لقد سبرَ هذا الكتاب أعماق مشكلة التفاوت الاجتماعيِّ في مدينة عمَّان، كما حاولَتِ المؤلِّفة الوُلوجَ إلى مسبِّباتها ومآسيها، حيث أرادت أن تقول في رسالتها إنَّ أصل المشكلة هو العدالة الاجتماعيَّة، وعلى الحكومات أن تعملَ جادَّةً على حلِّها. إنَّ هذا عملٌ مفيدٌ يستحقُّ التقدير، كما يستحقُّ الوقوف عليه مليًّا".

فهمي جابر
متقاعد من ديوان المحاسبة

قاعُ المدينَة

لينا شنَّك

جبل عمّان ناشرون
Jabal Amman Publishers

المحتويات

التقديم ١٣

المقدِّمة ١٧

القصَّة الأولى: سكن مش كريم ٢٥

القصَّة الثانية: تعب المشوار ٤٣

القصَّة الثالثة: انقُصّ يا مريم؟ ٦٩

القصَّة الرابعة: ماني عربي...لكن إنسان ٨٩

القصَّة الخامسة: مواطنة درجة ثانية ١١٥

القصَّة السادسة: هكذا تُنتزَع الحقوق ١٣٣

شكر وعرفان ١٥١

التقديم

نصُّ "قاع المدينة" للكاتبة لينا شنَّك عصيٌّ على التصنيف؛ فهو ليس لونًا من ألوان السرديَّات تمامًا، كما أنَّه ليس تقريرًا صحفيًّا، إنَّما هو كلٌّ ذلك معًا. ويختلف عن التقارير الصحفيَّة من حيث اعتماد الكاتبة رواية الشخص لقصَّته وتصرُّفها بها، وهنا يكمن سرُّ هذا النصِّ وجماله وغناه.

منذ العتبة الأولى لهذا النصِّ، يأخذك عنوانه إلى المهمَّشين، إلى قاع المدينة حيث يعيش أولئك الذين يعانون ضنك العيش، وإلى عائلاتٍ تقتسم غرفة واحدة، وإلى أرملة تنتظر معونة وزارة التنمية الاجتماعيَّة نهاية الشهر بفارغ الصبر. ويرسم النصُّ معاناة هذه العائلات على لسان راوٍ داخليٍّ يتحدَّث بلسان العائلة، فيَصل الصوت إلى القارئ دون وسيط.

لم تكتفِ الكاتبة بالوصف ونسج الحكايا، لتستدرَّ عطف القرَّاء على أولئك المسحوقين، بل اقتحمت مناطق ساخنة، فكشفت عن أشكالٍ مختلفة من

الفساد تعشِّش في مجتمعنا؛ فهناك شراء الأصوات في الانتخابات البرلمانيَّة، واستغلال حاجة الفقراء إلى المال لانتخاب القادر على الدفع. كما دخلت الكاتبة بحكاياها السجونَ وما يجري وراء قضبانها. وكشفت النقاب عن ظلم المجتمع للمرأة والتمييز تُجاهَها، بحرمانها من التعليم، وتزويجها رغمًا منها، بل صارت الفتاة نفسها تلوذ بالزواج من ظلم أهلها. وعلاوةً على ذلك، عبَّرت الكاتبة عن قضيَّة التحرُّش في المُجتمع ولا سيَّما في المدارس الحكوميَّة، وجعلَتنا نتعاطف مع الغارمات، وهُنَّ يُسقنَ إلى السجن وقد تقدَّمن كثيرًا في السِّنّ.

ولم تتوقَّف الكاتبة عند حكايات الفقر والفقراء، إذ عرَّجت على قضيَّة غاية في الأهمِّيَّة هي أبناء الأردنيَّات، وعبَّرت بواسطة قصص هؤلاء الأردنيَّات عن ألمهنَّ وقِلَّة حيلتهنَّ وهُنَّ يرين بناتهنَّ وأبناءهنَّ يقارعون البطالة ويذوقون مرارة الذلِّ وذوبان الهُويَّة، معَ أنَّ هؤلاء الأبناء من أمٍّ أردنيَّة عاشت عمرها كلَّه على أرض الوطن. إنَّ قراءة قصص هؤلاء الأمَّهات وبناتهنَّ وأبنائهنَّ تترك غصَّة في القلب وتطرح سؤالًا محوريًّا: إلى متى تظلُّ مسألة تجنيس الأبناء حكرًا على الرجال فقط؟ أليس في ذلك غبن كبير للمرأة وانتقاصٌ من مكانتها الاجتماعيَّة؟ إنَّ حرمان المرأة من توريث جنسيِّتها لأبنائها يعني أنَّنا نقول بوضوحٍ لبناتنا وأبنائنا إن الأردنيِّين ليسوا متساوين في الحقوق والواجبات.

هذا النصُّ هو صوت المهمَّشين الخافت، الذي يجب أن يعلو ليحسَّ الجميع بمعاناتهم، وليشعر الكلُّ بأنَّ لديهم الحقَّ في حياة كريمة. ولكنَّ هذا النصَّ لم يكن ليرسم صورة ذلك كلِّه بقدر ما هو دعوة إلى كلِّ المعنيِّين للالتفات إلى قضايا هؤلاء، وجعل العاصمة عمَّان واحدة لا اثنتين. إنَّ هذا النصَّ يصِفُ ليس فقط ما يعانيه سكَّان القاع، بل يوصل أيضًا رسالة واضحة مفادها أنَّ غياب العدالة الاجتماعيَّة يؤدِّي إلى عواقب وخيمة على المجتمع برُمَّته. كما أنَّ الكاتبة تدعو الجميع إلى سبر أغوار المجتمع لكي نكون قادرين على تفسير سلوكاتنا، وفهم انتشار الظواهر السلبيَّة التي تنبت في مجتمعنا لنُسهم معًا في خلق بيئة حاضنة للجميع، نستطيع بها القضاء على ما يُعيق نماء هذا الوطن ورِفعته.

إنَّ على المعنيِّين توجيه جهودهم من أجل خلق فرص متكافئة في التعليم والعمل، وبذل الجهد في تنمية المناطق جميعها بصورة عادلة، وإشراك الشباب في برامج ومشاريع تنمويَّة، وتوفير كلِّ السبل لهم من أجل أن يبدعوا مشاريعهم الخاصَّة وهم على مقاعد الدراسة، كما يجب دعم المشاريع الصغيرة التي تبتكرها العائلات، ويتطلَّب هذا كلُّه إشراك المؤسَّسات والشركات الخاصَّة في عمليَّة الدعم والتبنِّي.

أخيرًا، يجذبك الكتاب إلى قراءته؛ لأنَّه وظَّف السرد بطريقة مشوِّقة، ونسجت الكاتبة كلماتها بلغة بسيطة حافظت بها على التشاكُل بين اللغة

وصاحبها ولا سيَّما في الحوار، باستعانتها باللهجة المحكيَّة، ممَّا زاد الأسلوبَ القصصيَّ واقعيَّة وقُربًا من القارئ، فيشعر القارئ بأنَّ الراوي حقيقيٌّ يسرد حكايته الخاصَّة، وأنَّ الأسلوب القصصيَّ مباشر لا مواربة فيه.

هيفاء حجَّار نجَّار
عضو مجلس الأعيان الأردنيّ
المديرة العامَّة لمدرستَي الأهليَّة للبنات والمطران للبنين

المقدِّمة

في بداية العام ٢٠١٧م، انهارت بنايات سكنيَّة في جبل الجوفة شرق العاصمة عمَّان. لم تَقَعْ هناك إصابات، فقد أخلت الجهات المعنيَّة البنايات، ونقلت سكَّانها وسكَّان البيوت المجاورة لها إلى شققٍ فندقيَّةٍ مؤقَّتًا إلى حين التحقُّق من سلامة المنطقة.

دخلتُ ذاك الشارع الضيِّق، الذي تخاله على وشك الانهيار هو الآخر، للمرَّة الأولى عندما كلَّفني موقع حبر بكتابة تقرير حول العائلات التي سكنت البنايات، فتعرَّفت إليهم للمرَّة الأولى وغادرت. أنجزنا التقرير، وعُدت إلى منزلي، وما كُنتُ لأعود إلى المنطقة إلَّا بعد شهورٍ قليلة عندما التقيت سيِّدة جديدة من سكَّانها، بالصدفة في أثناء إجراء بحثٍ لمادَّة صحفيَّة أُخرى.

هذه السيِّدة هي التي قادتني إلى فكرة الكتاب، فقد جلستُ في منزلها مشدوهةً، أستمع إليها وهي تروي قصَّة يومٍ غير عاديٍّ من أيَّامها بأسلوبٍ

حكواتيَّة بارعة لا تعرف أنَّها تملك تلك المهارة، كاشفةً عن تفاصيلَ شغلت تفكيري طوال طريق العودة إلى منزلي الواقع غرب العاصمة، فسألت نفسي بصدق: ما الذي أفعله في أيَّامي هذه؟ ما فائدة كلِّ ما أكتب إن لم أتعمَّق في تفاصيل حياة هؤلاء الناس؟

حينها فقط، عزمت على العودة إلى بيتها، راجيةً إيَّاها أن تتحمَّل زياراتي المتكرِّرة وأسئلتي غير المترابطة في بداية الأمر، فلم أكُن أعرف شكل الكتاب بعد، ولكنَّني كُنتُ على يقينٍ أنَّني أريد إيصال صوت أهل المنطقة، ليكونوا نموذجًا مصغَّرًا عن كلِّ المناطق والمجتمعات المهمَّشة في البلاد. هكذا وعلى مدار سنة ونصف تقريبًا، تتبَّعت مسار حياة عائلة هذه السيِّدة وغيرها من عائلات المنطقة، ورافقتهم بينما صارعوا من أجل البقاء في مكانٍ لا يقدِّم لهم الكثير من الخيارات.

في هذه المنطقة، حاولنا معًا فهم ما يجري!

******

"كلّ ولاد الجوفة زُعران"

كثيرًا ما سمعتُ هذه العبارة على لسان من يردِّدونها باستسهال، بينهم شرطيٌّ مسؤول عن إنفاذ القانون، ومحامٍ يظنُّ أنَّه محقّ، بل يعفي السلطات

من مسؤوليَّتها عن خلق بيئة مناسبة لمخالفة القانون، فيستشهد بنظريَّة مفادها أنَّ "المجرم يولد مجرمًا". فيدَّعي: ما شأن الحكومة أو غيرها بهذه الجينات؟ ولمَ نحمِّلها وزرها؟

هذا الحكم ظالمٌ لأسباب عدَّة يطول شرحها، ولكنَّ أبرزها أنَّ هذا الخطاب غير إنسانيٍّ بالدرجة الأولى. كما يُغفل- إمَّا بحسن نيَّة وإمَّا غير ذلك- دور الإهمال الذي تعرَّضت له المنطقة من مختلف النواحي، شأنها شأن غيرها من مناطق عمَّان الشرقيَّة، والذي يؤدِّي بالضرورة إلى خلق بيئة خصبة للجريمة، التي كانت في بعض الأحيان مجرَّد محاولة بائسة للبقاء، وهذا ليس تبريرًا بقدر ما هو محاولة لفهم سلوك الناس.

يطلُّ أحدنا على هذا المجتمع من الأعلى، فيُحمِّل الفرد فيه وحده مسؤوليَّة تصرُّفاته بمعزل عن محيطه، وقد يستشهد بأمثلة لأفراد ناجحين ذوي سجلَّات ناصعة البياض في بيئات مشابهة، ذاقت الفقر والحرمان مثلها، فينسى أنَّ هؤلاء يمثِّلون قصصًا جميلةً للنجاح، ولكنَّهم الاستثناء وليسوا القاعدة. ثُمَّ تأتي الأمَّهات اللواتي رأين سلوك أبنائهنَّ يجلب لهنَّ المتاعب، فيقُلن وهنَّ في قمَّة شعورهنَّ بالخيبة إنَّه كان يُمكن أن يكون مثل "فلان أو علَّان"، ممَّن يعيشون بالقرب منهم، في البيئة ذاتها، ولم ينحرفوا بعد.

"هَيْ فلان، هَيْ علَّان، ليش ما صاروا هيك؟"

لم يطُلِ البحث عن الجواب، فحتَّى هؤلاء، الذين يمدح الجميع أخلاقهم

وابتعادهم عن مشاكل المنطقة، منهم من وقع أخيرًا في شباكها وباغتنا جميعًا ونحن نحاول تفسير سلوكه السويِّ ظاهريًّا في بيئة غير سويَّة. هل تصرَّفوا بطيش في لحظة غضب عارم؟ هل أرادوا إثبات أنَّهم رجال هم أيضًا متأثِّرين بنشأتهم في مكانٍ يحلُّ فيه الجميع مشاكلهم بأيديهم؟ هل نال منهم الضغط اليوميُّ أخيرًا وجعلهم كبقيَّة أقرانهم؟

لا نعلم الجواب القاطع، فمن كانوا مهذَّبين بالفعل يومًا ما، لا يُسمع عن وقوعهم في الانحراف قد وصلوا إلى السجن، معَ كلِّ محاولات أصدقائهم أن يجنِّبوهم تلك التجربة خوفًا عليهم من أن "يفتحوا العدَّاد"، فيبدأ تسجيل قيدٍ تلو الآخر مثلهم.

اليوم، لا يُمكننا أن نظلَّ نُشير إلى "فلان أو علَّان" لنعفي أنفسنا، دولةً ومجتمعًا، من المسؤوليَّة، فقد بات لزامًا علينا أن نقترب أكثر فأكثر، ونُشير بإصبعنا إلى السبب ونقول بصراحة: هذا مكان لا يصلح للعيش الكريم، والناس أبناء بيئاتهم شِئنا أم أبَينا!

******

"شو بِدِّك بحيّ الطفايلة؟ نصيحة لا تروحي. أصلًا، شو عندهم مشاكل؟"

عبارة سمعتها كثيرًا من أبناء الحيِّ المقابل لـ"حيِّ الطفايلة" في الجوفة، والحُجَّة

أنَّ ذاك "الآخر" يعيش حياةً هانئة، يقبض سُكَّانه راتبًا ثابتًا من وظائفَ في القطاع العامّ، ولا يوجد ما يشتكون منه. في الحقيقة، كدت أُصدِّق هذا الكلام بعد جولة سطحيَّة في شارعٍ واحدٍ في الحيّ، رأيت فيه ما يوحي بأنَّه يحظى برعاية أفضل.

ولكن بعد التعمُّق قليلًا فيه، وجدته حيًّا آخرَ في عمَّان الشرقيَّة. وصحيح أنَّ فيه مناطق تبدو كأنَّها أفضل من غيرها، ولكنَّه ليس حيًّا من أحياء "باريس" كما يصوِّره الغرباء عنه في الجهة المقابلة، وفيه من الهموم ما يستحقُّ أن يُسمع هو الآخر، بل يكفيه آفة المخدِّرات التي انتشرت فيه في السنوات الأخيرة بصورةٍ باتت تُقِضُّ مضاجع سكَّانه.

وجدت أنَّ أفضل تعبير عن نظرة الناس بعضهم إلى بعض في الجهتَين هو ما سأقتبسه من أحد شخصيَّات الكتاب، الذي رأى أنَّ جيرانهم "يظنُّون أنَّنا نعيش في «أوروبَّا» في حين هم وحدهم يعانون، شأنهم في ذلك شأن كلِّ المسحوقين، الذين يقارنون وضعهم بالمسحوقين الآخرين الذين قد يكون وضعهم تحسَّن تحسُّنًا طفيفًا- تحسُّنًا قد لا يُرى بالعين المجرَّدة- ويتناسون السبب الأصليّ".

ذكرتُ العبارة على مسامع أناسٍ نصحوني بعدم الذهاب، فلم يقتنعوا. قُلت: "تمام. ولكن تصوَّروا لو أنَّني ذهبت إلى مقابلة عمَّالٍ وافدين في منطقتكم ولم أَزُركم؟ كنتُ سأسمع في الغالب الكثير من القصص التي تصوِّركم على

أنَّكم مجرمون يعتدون على عمَّالٍ وافدين ويسرقونهم ويستقوون عليهم، والقائمة تطول، وأنَّكم في وضع أفضل منهم بكثير. ولكنَّني زُرت الوافد الغريب، وزُرتكم، فدخلت بيوتًا مهترئة من الطرفين تراكمت فواتير الكهرباء والمياه فيها على مدى سنوات، ويدعو أهلها بالفرج والستر والبقاء، وأحيانًا الخلاص بأيَّة وسيلةٍ كانت".

فكَّرنا طويلًا في الحوار، ثُمَّ أنهاه أحدنا بكلمة واحدة: "بيجوز"!

******

لا يزعم هذا الكتاب تقديم أجوبة قاطعة عن أسئلتنا حول العدالة الاجتماعيَّة، فما هو إلَّا محاولة لإيصال صوت هؤلاء الناس، الذين فتحوا لي بيوتهم وقلوبهم، فلهم منِّي خالص الشكر على ما تعلَّمتُه منهم.

إنَّه يروي القصص التي سردوها لي، والأحداث التي شهدتها بأُمِّ عيني معهم، وذلك بصيغة المتكلِّم بتصرُّف، حتَّى يكوِّن القارئ، لا سيِّما الذي لا يعرف المنطقة عن قُرب، صورةً واضحةً لما يمرُّ به أبناء مجتمعنا وبناته، متجاوزًا الأحكام المتسرِّعة بحقِّ بعضنا بعضًا. وتجدر الإشارة إلى أنَّني اعتمدت على ما أسعفتهم به ذاكرتهم، وما استطاعوا إثباته لي بطرقٍ مختلفة، ولكنَّني لم أسعَ إلى التحقُّق ممَّا رووا من طرف ثالثٍ لحمايتهم أوَّلًا، ولأنَّ الكتاب لا يتَّخذ أصلًا طابع التقارير الصحفيَّة التقليديَّة.

آمل أن يُلهم الكتاب القرَّاء للتفكير في مستقبل مدينة عمَّان، لعلَّنا نُشارك جميعًا في بناء مجتمع أكثر عدالةً، يحتضن الجميع ويحترم إنسانيَّتهم ويمنحهم فرصًا متكافئةً لتحقيق ذواتهم. فالعدالة تصبُّ في مصلحة كلِّ فرد منَّا، وغيابها يهدِّد كلَّ فرد منَّا أيضًا من شرق المدينة إلى غربها، ومن شمالها إلى جنوبها، بل يهدِّدُ البلاد كلَّها!

القصَّة الأولى

سكن مش كريم

******

"أُمنيتي؟ أُمنيتي أشوف خَضار، شجر، أمسك بإيدي زريعة وأزرع...بس أروح أي مكان فيه خَضار، بقوللهم اتركوني لحالي أسرح...إشي بيردّ الروح!"

"مِش رح نِرحل... آخ لو نِرحل!"

ذات خميس في شهر كانون الثاني/يناير من العام ٢٠١٧م، انهارت عمارات سكنيَّة تُطلُّ على الشارع الرئيسيِّ القريب من بيتنا. يسكنها أُناسٌ عرفناهم وعشنا بجوارهم على مدى عقودٍ طويلةٍ فصرنا كالعائلة الصغيرة الواحدة.

لم يُعرف السبب بالضبط، ولكن انهارت العمارات التي ما بُنيَت إلَّا بعد جهدٍ عظيمٍ من الآباء والأمَّهات، والادِّخار سنواتٍ طويلة، فوقعت كأنَّها لم تكُن، ولكن دون خسائر بشريَّة، ولله الحمد. جاء الدفاع المدنيُّ فأخلوا جميع سكَّان المنطقة احترازيًّا، وكُنت من بينهم، أنا وأبنائي وبناتي، وقالوا إنَّنا سنعود عندما يطمئنُّوا إلى أمان المنطقة وسلامتها.

لكن بعد مرور أيَّام في الشقق الفندقيَّة التي استأجرتها لنا الحكومة، قرَّرت العودة إلى بيتي طوعًا. أبنائي وبناتي بخير، وأثاثي لم يُخدش، فلِمَ أبقى هناك؟

دفعنا باب المنزل الذي يحتاج إلى "دَفَاشة" في التعامل وعُدنا نسكن البيت الذي قصم ظهرنا. وها نحن ننتظر، شأننا شأن بقيَّة سكَّان المنطقة، الجهات المعنيَّة لتنهي فحص التربة والبيوت، ثُمَّ تقرِّر الحكومة مصير المنطقة بأكملها: أنبقى أم نرحل؟

******

منذ متى والنساء لا يركبن الحمير؟ حتَّى لو كنَّا قد دخلنا الألفيَّة الثالثة، ما العيب في أن تركب سيِّدة الحمار، وتنقل على ظهره موادَّ البناء؟

أحد المارَّة كان يستهزئ بي، فقُلت: "ما لَك؟ ولك كبار الشخصيَّات ركبت حمير...شو؟ آه كبار الشخصيَّات...ما شفت عبير عيسى وهي راكبة حمار في مسلسل بدوي؟".

لا أدري بالضبط مِن أين جاء زوجي، رحمه الله، بالحمار أساسًا. لا بُدَّ أنَّ الله سخَّره لنا لأنَّنا لا نملك أن ندفع أجرة العمَّال، فلا بُدَّ أنَّه وجده على الطريق، وحيدًا لا يمانع في مساعدتنا فحمله على "ظهر البكم" وأنزله على رأس الشارع في الجوفة.

كان زوجي يأتي بموادِّ البناء فيضعها على مدخل الشارع، ومن ثُمَّ أُحمِّلها على الحمار وأركَبه فأصل به إلى باب بيتنا، هذا الذي اشتريناه من أهل زوجي بألفٍ وخمس مئة دينار في تسعينيَّات القرن الماضي. ولكنَّه لم يكُن كما نراه اليوم، لم يكُن لدينا غرفة نوم واحدة، وغرفة معيشة، وغرفة ضيوف، ومطبخ وحمَّامَين كما هي الحال اليوم، هذا "عِزّ" لم نعشه إلَّا منذ سنوات قليلة.

منذ أن جئت إلى الجوفة عام الثلجات السبع، أي في أوائل التسعينيَّات، لم يكُن لدينا إلَّا غرفة واحدة، هي تلك التي نسمِّيها غرفة الضيوف اليوم.

كُنَّا ننام ونجلس ونأكل ونفعل كلَّ شيء في تلك الغرفة، أنا وزوجي، وأبنائي وبناتي، وضيوفنا من القوارض. كان حمَّامنا بلا سقف، ومطبخنا كذلك، واعتدنا أن تمطر علينا في أيٍّ منهما بين الحين والآخر.

كلُّ بيوت المنطقة كانت تتراوح مساحتها ما بين ٤٠ و٨٠ مترًا في تلك الأيَّام، وكلُّها كانت من "الزينكو"، لكنَّ القوارض أصبحت ضيوفًا ثقيلي الظلّ، ولم نعُد نحتمل وجودها بيننا.

أخذنا قَرضًا لتوسعة البيت والتخلُّص من الزينكو، وتوكَّلنا على الله، تقريبًا في عام ٢٠٠٣م أو ٢٠٠٤م. هكذا شكَّلنا، نحن العائلة المكوَّنة آنذاك من سبعة أفراد، جيشًا يسند بعضه بعضًا. كان زوجي يغيب طويلًا عنَّا، ذاهبًا في جولات على ورش البناء، ينبِّش في ما يرميه سكَّان الڤلل في عمَّان الغربيَّة، ويأتينا بكلِّ ما يفيض عن حاجتهم: بلاط من كلِّ الألوان، علب دهان، مغاسل، وكلُّ ما يجد. وكان علينا أن نجد له مكانًا في هذه المساحة الضيِّقة، ولا يهمُّ إن كانت الألوان متناسقة؛ فكلُّ شيء لم يعُد ينفع الآخرين، ينفعنا نحن بالتأكيد.

ابني البكر، الذي كان عمره نحو ١١ عامًا آنذاك، كان متفوِّقًا في المدرسة، ولكنَّه كان جنديًّا في جيشنا أيضًا، فتجده يحمل معنا، يحني ظهره من أجلنا، فلا يحلُّ موعد دراسته إلَّا وقد استسلم للنوم على الكتاب. كلُّنا تعبنا. أربع سنوات من الجهد المستمرِّ كي نبنيَ هذا البيت بغرفة نوم واحدة،

وغرفة ضيوف تصلح لنوم بعضنا، وغرفة معيشة تصلح لنوم بعضنا الآخر، ومطبخ، وحمَّامَين.

ما كدنا نربِّت أكتاف بعضنا بعضًا ونلتقط أنفاسنا، ونشكر الحمار الذي جاءنا في الوقت المناسب، حتَّى فكَّرنا في بيع البيت بسبب ضائقة ماليَّة أصابتنا بعدها بسنواتٍ قليلة.

لم نفعل. قالوا لنا: "بكرا بتصرفوا المصاري وبتقعدوا في الشارع". لكن أتساءل دائمًا: إلى أين كُنَّا لنذهبَ أصلًا؟

******

في أواخر العام ٢٠١٧م، تردَّدت أنباء في الحيّ، تزعم أنَّ الحكومة تريد حمايتنا بعد الانهيارات التي حدثت، وتريد ترحيلنا إلى مشروع "سكن كريم لعيش كريم". وبالتأكيد رفضَتِ الغالبيَّة منَّا هذا الحلّ؛ فنحن نتمتَّع ببعض الخدمات رغم تدنِّي جودتها، ونحن قريبون من وسط البلد ومستشفى البشير وغيره، فكيف نرحل إلى منطقة بعيدة غير مخدومة؟

هذا ما سمعتهم يتداولونه. لا شكَّ أنَّ فكرة الرحيل راودتني منذ التسعينيَّات. لا شكَّ أنَّني تمنَّيت في سرِّي لو نُقتَلع بالفعل من هنا، فنرحل إلى أرضٍ واسعة نملكها ونبني عليها بيتًا يطلُّ على أيَّة مساحة خضراء- بيتًا

لا تفوح من حوله رائحة الصرف الصحِّيّ، حيث نتطهَّر بحقٍّ وتجوز صلاتنا عند الله. ولكن ليس بيتًا غير مخدوم في مشروع سكن كريم.